

علم الملل والنحل الإسلامي؛ مصادره، مناهجه وغاياته الشرعية

The Islamic Science of Almilal-wa-Nihal; its sources, methods and its legitimate purposes

إيمان فاضلي¹

¹ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (قسنطينة - الجزائر) البريد الإلكتروني: i.fadeli@univ-emir.dz

تاريخ الاستلام : 2024/08/29 ؛ تاريخ القبول : 2025/06/14 ؛ تاريخ النشر : 2025/07/31

Abstract

One of the most beautiful products and inventions of Islamic civilization was its interesting of religious sects and of those creeds that called (milal- wa- nihal), which was deeply Islamic product in its sources, language, terms, methods and aims.

Therefore, we attempt in this paper to clarify those points, in addition to compare it to Jewish and Christian theology in the medieval Ages, besides to the modern science of religions, so, we can prove the Islamic origins and sources of that knowledge and its uniqueness in its methods and goals.

Keywords: Sects and creeds; Islamic civilization; Arabic language; Religious tolerance; legitimate purposes.

الملخص

يعتبر علم الملل والنحل علما إسلاميا عربيا له موضوعه ومناهجه ومصادره الخاصة به والتي يستقيها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة القولية والفعلية، وكذا له غاياته الشرعية التي وُضع لأجل تحقيقها، لذا جاءت هذه الورقة للإبانة عن معالم هذا العلم والكشف عن أصالته و ضرورته في حضارتنا الإسلامية؛ فمن خلال تنبيه القرآن الكريم إلى وجود فئات دينية مختلفة في المجتمعات الإسلامية، وكذا من خلال اللقاءات الأولى للمسلمين بغيرهم من أصحاب هذه الديانات على أرض الواقع انبثق هذا العلم الذي سنشير في هذا البحث إلى تفرد مناهجه وتميزها بالنسبة إلى نظرائه (اليهودي -المسيحي) في العصر الوسيط، إضافة إلى ارتباط تسميته وطبيعته العلمية بأغراضه الشرعية، كما سنسلط الضوء على مصطلحاته العربية المنحوتة من الأصول القرآنية الإسلامية التي تؤدي غرضها الشرعي المرتبط بهذا العلم

الكلمات المفتاحية : علم الملل والنحل؛ مصادره، مناهجه ؛ طبيعته العلمية؛ أغراضه الشرعية .

*المؤلف المراسل.

(مقدمة) : كانت دراسة الأديان تنطلق من اتجاهين متقابلين ؛ أولهما الدراسة من الداخل وهذه علوم تمتاز بالتبريرية والدفاعية ضد الأديان الأخرى وهي موجودة في جميع المنظومات الدينية (الوثنية والوضعية و السماوية) كما أنها علوم خادمة للدين في الغالب تمتاز باخضاع العقل للنقل أو للتقليد، أما الاتجاه الثاني فهو الدراسة من الخارج؛ وهذا النوع تنتمي إليه العلوم الحديثة التي نتجت عن الصراع بين الدين والعلم خلال العصور الوسطى خاصة ضمن المجتمعات المسيحية، وهي علوم تهدف عموماً إلى إثبات بشرية جميع الأديان وكونها ظواهر إنسانية اجتماعية وهذا للتدليل على عدم نجاعتها في العصر الحديث وعدم خدمتها للإنسان المعاصر، أما في الإسلام فقد ظهر الإهتمام بالآخر المختلف دينياً ولغوياً وحضارياً منذ الظهور الأول للدعوة الإسلامية في القرن السابع للميلاد وانتشارها في الآفاق مع حركة الفتوح الأولى بداية ببلاد الشام والعراق ومصر، فقد كانت هذه الفتوح فرصة للتعرف على (الآخر المختلف دينياً) مما جعل تعلم التعامل معه ضرورة ملحة، وبما أن القرآن الكريم هو دستور المسلمين فقد عاد إليه المسلمون ليتعرفوا ما أقره بخصوص (غير المسلمين) الذين وصفهم وأشار إلى أهم عقائدهم وأطلق عليهم عدة تسميات بحسب وضعيتهم العقديّة مقارنة بالإسلام كدعوة صحيحة لتعريف المسلمين بأنفسهم وكذا لتعريفهم بغيرهم؛ فقد ذكر القرآن الكريم العديد من المختلفين دينياً وسماهم (أهل الكتاب ، المشركين و الضالين) بينما رأى أن البعض الآخر كان مخالفاً تماماً وبعيداً جداً عما أقره الإسلام من الحق وهؤلاء سماهم (الكفار والمغضوب عليهم) مما حفّز عقول المسلمين للتعرف على هؤلاء جميعاً، كما أنه حدّد طبيعة علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى على أساس درجة القرب أو البعد عن الإسلام كونه معياراً للصحة والمصادقية، حيث جاء في الآية الكريمة: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَزُهَّابًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ }¹، وقد كان المسلمون وعلى ضوء الهدي القرآني ونور السنة النبوية الشريفة القولية والفعلية سباقين إلى الإهتمام بأصحاب الديانات المخالفة وإلى معاملتهم بالتي هي أحسن على عكس ما كان

متعارفا عليه ومعمولا به عند الأمم الأخرى التي كانت تُصادر غيرها من الديانات والمعتقدات وترى أنها مجرد هرطقات وبدع وأنها خاطئة ويجب القضاء عليها بالقوة والعنف؛ وبالتالي لا توجد ديانة قبل الإسلام ترى ضرورة التعرف على أو دراسة ديانة مخالفة إلا وفق نظرة دوغمائية استعلائية ومن أجل تحقيق أهداف دفاعية تبريرية لطبيعتها الذاتية ومصادقيتها كدعوة صحيحة وحدها مملوكة للحقيقة الإلهية، أما الدعوة الإسلامية فهي مختلفة عن هذه الدعوات السابقة في عدة نقاط رغم التشابهات بينها في نقاط أخرى وأهمها نقطتين: أولهما أن الإسلام أعلن من خلال القرآن الكريم أنه يعترف بالدعوات السابقة إلى دين الله الحق ولكنه يُقر أنها تعرضت للتحريف والتزييف، لذا فهو آخر هذه الدعوات وأحقها بالإتباع مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} ²، وثانيهما أن الإسلام يتفق مع الشرائع السابقة في أصل الوحدانية ويختلف معها في الفروع التي تتنوع تبعا لحاجات الناس وظروفهم المعيشية، قال تعالى: {أَمَنْ الرُّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} ³، هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فقد عمل المسلمون وفق هذه المبادئ المسطرة في القرآن الكريم والسنة الشريفة قدر المستطاع فأوجدوا (علم الملل والنحل) وأوجدوا نظما وقوانين تحكم علاقات المسلمين مع أصحاب الديانات المخالفة الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية وأهمها (قانون أهل الذمة)، وقوانين أخرى توطر علاقتهم بغير المسلمين خارج الدولة الإسلامية، وعلى هذه الأسس أيضا بُني (علم الكلام الإسلامي) الذي من فروعه (علم الملل والنحل) الذي اختص في البداية بدراسة الفرق الإسلامية الداخلية من أجل الحوار الداخلي مع الذات، ثم توجه أخيرا إلى الفرق الخارجية من الديانات والملل والنحل المخالفة للإسلام؛ أي الحوار مع الآخر مستندا إلى ما جاء به القرآن الكريم من مناهج وسبل للدعوة وأهداف شرعية مسطرة له منذ البداية، ومن هنا جاءت إشكالية البحث الرئيسة والتي رأينا معالجتها بالمنهج بالإستقرائي لبعض الدراسات المؤرخة للعلوم الإسلامية في الحضارة الإسلامية: ما طبيعة علم الملل والنحل

الإسلامي؟ وما الدلالات الشرعية لمصطلح (علم الملل والنحل)؟، وقد قسمنا هذه الإشكالية إلى الأسئلة الفرعية التالية :

ماذا نقصد بعلم الملل والنحل ؟ وما تاريخه ؟ وما مصادره وموضوعه ؟ وما هي مناهجه ؟ وهل تحقق المصطلحات الحديثة (الإبدالات الحديثة) الغايات الشرعية ذاتها ؟ .

1.I- ماهية علم الملل والنحل الإسلامي: التعريف اللغوي:

■ **المِلَّة** : بكسر الميم وتشديد اللام، هي والطريقة واحدة، وهي في الأصل من أمملت الكتاب بمعنى أمليته كما قال الراغب الأصفهاني: " وأصل الملة من أمملت الكتاب، قال تعالى: {وَلْيُمْلِلِ الذِّي عَلَيْهِ الْحَقُّ} (سورة البقرة: 282)"⁴، ومنه طريق مملول أي معلوم، ثم نُقل المعنى إلى أصول الشرائع باعتبار أنها يملئها النبي ولا يختلف الأنبياء عليهم السلام فيها، وقد يطلق على الباطل كالكفر ملة واحدة ولا يضاف إلى الله فلا يقال: (ملة الله مثلاً)، كما أنها لا تضاف إلى آحاد الأمة فلا يُقال: (ملة محمد مثلاً)، والدين يُرادف الملة صدقاً أي من ناحية الصدق فكل ملة دين وليس كل دين ملة، لكنه باعتبار قبول المأمورين لأن الدين في الأصل الطاعة والإنقياد ولا تحاده مع الملة من ناحية الصدق يجوز أن يدعى الدين ملة، قال تعالى: { دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا }⁵، والمِلل جمع ملة وهي الأديان المتعددة بتعدد أصحاب الشرائع، والملة هي الدين وليس كل دين ملة، والملة تُطلق على الدين السماوي فنقول: الملة اليهودية والملة النصرانية والملة الإسلامية⁶، وورد في كتاب (المفردات في غريب القرآن)⁷: " أن الملة اسم لما شرع الله لعباده بواسطة أنبيائه ليتوصلوا به إلى السعادة في الدنيا والآخرة وهذا تعريف خاص بالملة الصحيحة"، وأما في القرآن الكريم فوردت (المِلَّة) بإطلاق أعم على الصحيح والباطل منها، ثم أطلقها على (الملة الباطلة) في الآية أين قال تعالى: { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ }⁸، وعلى هذا فالملة هي الديانة سواء الصحيحة أو الباطلة، أما في (لسان العرب)⁹؛ فجاء أن الملة هي الشريعة والدين، والملة هي الدين وقيل معظمه وجملة ما يجيء به الرسل، وتَمَلَّل دخل في الملة .

■ **النحلة¹⁰** : الدعوى، فلان انتحل شعر فلان أو قول فلان إذا ادعاه أي ادعى أنه قائله، ونَحَلَه القول أي نسبته إليه ونَحَلَ الشاعر قصيدة إذا نُسبت إليه زورا ويُقال: ما نَحَلْتُكَ أي ما دينك؟، إذا، النحلة من الإنتحال أي إنتحال صفة الدين وهي ليست بدين، ويمكن أن نطلقها على الأديان الوضعية فنقول: النحل الوضعية لأنها مننحلة لصفة الدين وهي ليست كذلك، والنحل المذاهب المنشعبة من كل دين بتعدد المجتهدين، وأهل الملل هم قوم يتبعون كتابا دينيا، وأما أهل النحل فهم ليسوا تابعين لكتاب ديني .

I.2- التعريف الاصطلاحي:

لم يرد مسمى (علم الملل و النحل) كعلم مدون مستقل بمفهوم العلم في أي مصدر أو مرجع مؤرخ للعلوم الإسلامية، ولكن مباحثه ومناهجه متضمنة اليوم فيما يسمى (علم الأديان) الذي يتبحر الغرب بأنه منشئه الأول ومبتدعه منذ عصور الأنوار؛ فهذا العلم عندهم يتضمن ثلاثة مباحث عليها يقوم وهي: تاريخ الأديان (ضرب من ضروب التاريخ)، وفلسفة الأديان(وهي أبحاث نظرية غرضها إشباع نهم العقل في التطلع إلى البدايات وأصول الأشياء)ومقارنة الأديان(غرضها كشف التشابهات والمشاركات التي تثبت أن الإنسان هو مصدر فكرة الدين والتدين مع أنها يمكن أن تكون دليلا على وحدة المصدر)، ولكن هذه المصطلحات ليست إسلامية على الأكيد، يقول الأستاذ أحمد جود في كتابه(علم الملل ومناهج العلماء فيه)¹¹: "...هذه التقسيمات وتلك المصطلحات ظهرت في الغرب عندما بدأ الاهتمام بهذا العلم في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث، ثم انتقل منه إلى العالم الإسلامي، ولكن إذا نظرنا إليه من وجهة إسلامية شرعية نجد أن دراسة الأديان لا بد أن تتضمن تلك المباحث الثلاثة مجتمعة"، وهو هنا يقصد أن علم الملل والنحل الإسلامي لم يضم في بداياته هذه التقسيمات وأنها تقسيمات وتسميات حديثة رغم أن جوهرها وأهدافها الأساسية كانت متضمنة في علم الملل والنحل الإسلامي، كما أكد على أنه لا يمكن العمل على هذه العلوم منقسمة بل يجب أن تكون كلها متضمنة كمباحث قارة فيه ليتحقق الغرض الشرعي من دراسة الأديان والذي هو إظهار الحق ودحض الباطل، رغم أن هذه التقسيمات

الغريبة الحديثة كان أساسها وهدفها هو إظهار زيف الأديان كلها وإثبات أنها ظواهر إنسانية من اختراع الإنسان وأن ليس لها علاقة بالغيبيات، وما نظريات نشأة الدين¹² أو البحث عن منبع النزعة الدينية في النفس الإنسانية إلا دليل على هذا الكلام وهذا مخالف تماماً للغرض الشرعي من علم الملل والنحل الإسلامي في أصله، وقد اقترح الأستاذ (أحمد جود) تعريفاً لعلم الملل والنحل فقال هو: "علم يبحث في الملل من حيث منشؤها وتطورها وانتشارها وأتباعها، وفي العقائد والأصول التي تركز عليها الملل المختلفة، وفي أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينها مع المقارنة والمناقشة والرد"¹³، وهذا تعريف جامع لمباحث كل من تاريخ الأديان ومقارنة الأديان وفلسفة الأديان، ويزيد عليها الغرض الشرعي من هذه الدراسات وهو الرد عليها وبيان الحق المستحق للاتباع من الباطل المفروض نبذه، وإذا عدنا إلى كتاب (الحضارة الإسلامية) للأستاذ آدم ميتز¹⁴ نجد أنه أشار إلى أن المؤلفات الأولى في الديانات والآراء كانت تُسمى هذا الباب من البحوث (باب الآراء و الديانات والعبادات)، وأولها كان كتاب النوبختي (ت 202 هـ) المتكلم الشيعي مؤلف أول كتاب له شأن في هذا الباب والذي سماه (الآراء والديانات)، كما وجدنا إضافة إلى هذا إشارة في كتاب خزعل الماجدي نقلاً عن الدكتور الجنابي أن للنوبختي أيضاً كتاب يحمل مُسمى (الملل والنحل) قبل الإمام البغدادي، لكن ما قاله (آدم ميتز) لاحقاً يؤكد أنه لم يقف على استعمال هذه التسمية قبل القرن 11م، وهي الفترة التي توفي فيها الإمام البغدادي (ت 456 هـ) حيث يضيف في ذات الصفحة ويؤكد أن توصيف (الملل والنحل) لم يذكر قبل القرن 11م وهو المرجح .

I.3- تاريخ علم الملل والنحل وطبيعته العلمية:

■ تاريخه: قبل أن يواجه العالم الإسلامي الخلافات الخارجية كان قد عرف الاختلافات الداخلية زمن ولادة العلوم الإسلامية منذ القرن الثاني للهجرة، والتي كان سببها اختلاف وتنوع القراءات والتأويلات ووجهات النظر، وهذا طبيعي في الفكر البشري فولدت ما يُسمى الفرق الإسلامية المختلفة في العقيدة والفقه والتفسير والقراءات وغيرها¹⁵، وبما أن المجتمع الإسلامي لم يستطع أن يطوي واقع الاختلاف والتجزئة داخله؛ مال إلى اعتبار هذا

الإختلاف (سنة إلهية) في الجماعات البشرية وفق ما جاء في القرآن الكريم، قاله تعالى: { وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ رُبَّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ }¹⁶، أي أن الفكر الإسلامي أعطى لواقع الفُرقة الداخلية بين المسلمين، ثم الخارجية بين البشر (تأويلا شرعيا) ووجد فيها مقصدا إلهيا من الحياة الدنيا، وقد ساهم هذا التأويل في التقليل من حدة العنصرية وزاد في رحابة صدر المسلمين لتقبل واستيعاب الآخر (المختلف الداخلي تحت قاعدة (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا))، وكذا تقبل (المخالف الخارجي تحت قاعدة (لا إكراه في الدين))، والتأكيد على ضرورة التعايش كضرورة لا مفر منها داخل الأمة الإسلامية المتنامية الأطراف، لكن رغم هذا التقبل إلا أن الوضع لم يسلم من محاولات التقييم والتقويم والنقد والتصنيف إلى: إسلامي / لا إسلامي، حقيقة / ضلال، هلاك / نجات، إسلام / كفر، وذلك بالإحتكام دائما إلى تصورات القرآن الكريم والسنة الشريفة، وهذا أيضا أمر طبيعي يتعلق بالطبيعة التبريرية لهذا العلم في حد ذاتها، وحتى يحقق غرضه الشرعي، وفي هذا الباب نجد الدكتور ميثم الجنابي في كتابه (علم الملل والنحل) يحاول صياغة فلسفة لعلم الملل والنحل الإسلامي يقول في مقدمته: " المهمة التي نزمع إنجازها تقوم أساسا في الكشف عن ديناميكية ظهور وتطور هذا العلم ورؤية فلسفته الداخلية، أي صياغة فلسفة الملل والنحل الإسلامية "¹⁷، ويضيف في ذات الصفحة: " فالعلم المللي النحلي بالقدر الذي كان نتاجا لصراعات العالم السياسي فإنه كان في الوقت نفسه نفيا فكريا لها، حيث ساهم في تثوير صراعات الروح المعرفي كبديل عنها "، ويقصد الدكتور أن علم الملل والنحل الإسلامي خلق رغبة في التعرف على الآخر المختلف أو المخالف ومحاولة جادة لتقبله وإزالة أسباب رفضه والصراع معه، في محاولة لفهم الذات وتقييمها أيضا في حركة من الداخل إلى الخارج، كما أشار الدكتور الجنابي إلى أن من أهم مآثر علم الملل والنحل بالنسبة له هي: " التصنيف المدرسي لفرق الملل (الدينية) ومدارس الأهواء والنحل (الفلسفية والدينية اللاتوحيدية والوثنية) وهو لم يكتف في تصنيفاته وتقسيماته للفرق عند حدود جمع المادة الفكرية وتصنيفها- الأمر الصعب جدا في تلك الفترة- بل ومحاولته إجراء الدراسات المقارنة بينها سواء بصيغ الإنشقاق الفاضح

والعقلاني للفرق والأديان والمدارس الفلسفية مثل (ابن حزم ت 456هـ) أو الإنتقاد العقائدي الممزوج بعناصر التحليل العقلاني مثل (البغدادي ت 429هـ) أو بصيغة الموضوعية التحليلية الفلسفية مثل (الشهرستاني ت 548هـ)¹⁸، إضافة إلى القيمة العلمية والتاريخية لكتب الملل والنحل الإسلامية والتي احتفظت بالتراث الإسلامي كما بالتراث العالمي الموجود في تلك الفترة و نقلته إلينا، كما نجد الأستاذ آدم ميتز في كتابه الضخم (الحضارة الإسلامية) يعود بالأسباب الأولى لنشأة علم الملل والنحل في البيئة الإسلامية إلى (التسامح الديني) الذي تميز به المسلمون عن غيرهم من الشعوب خلال العصور الوسطى يقول: " وكان تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارى -وهو التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطى- سببا في أن لحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطى وهو (علم مقارنة الملل) ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين ذلك أن النوبختي وهو مؤلف أول كتاب له شأن في الآراء و الديانات كان فيلسوفا من نقلة كُتب اليونان إلى لسان العرب، وكذلك ألف المسعودي كتابين في الديانات ولم يكن المسعودي متكلماً، ثم جاء المسيحي -ت 420هـ/1029م- وكان ممن اشتغل في الدواوين، ومن مؤلفاته كتاب (درك البغية في وصف الأديان و العبادات) ..فقد عني هذا المؤلف الأديب العالم بالبحث في الأديان إلى جانب اشتغاله بأمور الدولة..ثم أقبل على البحث في الملل بعض المتكلمين الميالين إلى معرفة ما غاب عنهم فمن ذلك كتاب (الملل والنحل) لأبي منصور البغدادي -ت 429هـ/1064م- ثم جاء ابن حزم الأندلسي -ت 456هـ/1064م- فألف كتاب (الفصل في الملل و النحل) وردّ فيه على مختلف المذاهب متحمساً في ذلك للدفاع عن الإسلام، وفي أوائل القرن الخامس الهجري ألف أبو الريحان البيروني -ت 440هـ/1048م - كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) وجعله حكاية لمذاهب الهند على وجهها لا كتاب حجاج وجدل..فكان كتاب بحث علمي نزيه، ومما ينبغي أن نلاحظه أن عقيدة مؤرخي النحل كانت في الغالب موضعا لشكوك الشكاكين وطعنهم، وقد نقل ياقوت الحموي عن صاحب (تاريخ خوارزم) ما اتهم به الشهرستاني من التخبط في الإعتقاد، والميل

إلى الإلحاد"¹⁹، ويضيف في ذات الصفحة أن المتكلمين لم تكن لهم علاقة بنشأة هذا العلم والإبداع فيه مع أنه كان فرعاً من علم الكلام في الأصل، يقول: "ولم تكن نشأة هذا العلم من جانب المتكلمين، ذلك أن النوبختي مؤلف أول كتاب له شأن في الآراء والديانات كان من نقلة العلم اليوناني إلى لسان العرب، وكذلك المسعودي"، أي أن الذين نبغوا في هذا العلم لم يكونوا متكلمين في الأساس لذا لم يكن غرضهم الدفاع والتبرير بقدر التعرف و التعريف، مما جعل مصنفاتهم تتميز بالموضوعية والعلمية بدل الدفاعية والتبرير، كما نجد الدكتور عبد الله دراز في كتابه الشري(الدين) يشير إلى أنّ فضل الحضارة العربية الإسلامية على الغرب ليس نقل وشرح علوم اليونان والرومان والحفاظ عليها من الإندثار فحسب، ولكن أيضاً تعريفهم بعلم تاريخ الأديان المقارن ولقد امتاز تأثيرها بطابعين جديدين لها السبق فيهما وهما: "أحدهما أن الحديث عن الأديان بعد أن كان في العصور السابقة إما مغموراً في لجة الأحاديث عن شؤون الحياة أو على الأقل محدوداً بمحدود العقائد الموضوعية وما يشارفها، أصبح في كتب العرب دراسة وصفية واقعية منعزلة عن سائر العلوم والفنون شاملة لكافة الأديان المعروفة في عهدهم فكان لهم بذلك فضل السبق في تدوينه علماً مستقلاً قبل أن تعرفه أوروبا الحديثة، وأما الثاني فهو أنهم في وصفهم للأديان المختلفة لم يعتمدوا على الأخيلة والظنون ولا على الأخبار المحتملة للصدق والكذب، ولا على العوائد والخزعبلات الشائعة في الطبقات الجاهلة والتي قد تنحرف قليلاً أو كثيراً عن حقيقة أديانها، ولكنهم كانوا يستمدون أوصافهم لكل ديانة من مصادرها الموثوق بها ويستقونها من منابعها الأولى وهكذا بعد أن اختطوه علماً مستقلاً اتخذوا له منهجاً علمياً سليماً"²⁰، وقد أردف كلامه هذا بقائمة لأسماء المؤلفات العربية المشهورة في هذا الباب مرتبة ترتيباً تاريخياً وهم؛ النوبختي(ت 202هـ) (الآراء والديانات) و(الملل والنحل)، المسعودي (ت 364هـ) (إدراك البغية في وصف الأديان والعبادات)، البغداددي(ت 456هـ) (الفرق بين الفرق)، الشهرستاني(ت 548هـ) (الملل والنحل)، والبيروني(ت 440هـ) (تحقيق ما للهند من مقولة..).

■ **طبيعته العلمية:** أخذ طبيعته العلمية من أصله كفرع من فروع (علم الكلام) أي كونه علما دفاعيا تبريريا، يقول الأستاذ أحمد جود عن صلة علم الملل بعلم التوحيد: "إذا كان علم التوحيد يُعنى فيه بحفظ العقائد الصحيحة ورد الأباطيل والشبهات والبدع، فإن علم الملل يُعنى بذلك أيضا، ومن ثم يمكن القول على هذا الاعتبار بأنهما علم واحد ولذا جعل كثير من الباحثين علم مقارنة الأديان فرعا من فروع علم الكلام تصح دراسته في أقسام العقائد، ولكن إذا نظرنا إلى أن علم الملل يشمل على العقائد وغيرها من جوانب الدين، فإنه بهذا الاعتبار أعم من علم التوحيد فيكون علما مستقلا عنه"²¹، لكن طبيعته الدوغمائية لم تمنع أن يكون موضوعيا على قدر المستطاع خاصة أن رواده لم يكونوا من المتكلمين بل من الفلاسفة وذلك باعتراف العديد من العلماء الغربيين مثل (آدم ميتز) الذي أقر أن علم الملل المقارن الإسلامي لا ينتمي إلى زمانه (العصور الوسطى) ويقصد أنه متفرد و مميز عن نظرائه من العلوم اللاهوتية في تلك الفترة: علم اللاهوت المسيحي واليهودي وغيره من العلوم الدينية التي تنتمي إلى العصور الوسطى، والتي تتميز بالدوغمائية والتوقع على الذات و عدم الاعتراف بالآخر المخالف ولا بوجوده أساسا، وهدفها الوصول إلى أعلى درجات التدين والإلتزام والوفاء عند المتدين، ويقر الحداثيون العرب أمثال خزعل الماجدي بهذا التميز لعلم الملل والنحل الإسلامي الذي يقول: "أظهر المسلمون تميزا استثنائيا في التاريخ الوسيط في نشوء وترسيخ ما يمكن أن يطلق عليه (علم الأديان الوسيط الإسلامي) أو (علم الأديان العقائدي الدوغمائي) فقد فاقوا في ذلك ما أنتجه اليهود والمسيحيون"²²، وهو يوافق أيضا (آدم ميتز) في كون أبي الحسن النوبختي المتكلم الشيعي الإمامي (ت 310هـ / 922م) أول من أطلق هذا المصطلح الإسلامي على العلم المتخصص في دراسة الآراء والمعتقدات والديانات المخالفة، لكنه يذكر مؤلفا آخر للنوبختي يحمل هذه التسمية وهو كتاب (الملل و النحل)، ولقد درس هذا الإتجاه في كتابه الذي يحاول فيه التأريخ لعلم الأديان الحديث وبذوره الأولى في الديانات السماوية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) وقد وضع (علم الملل والنحل الإسلامي) في الفصل المعنون ب(علم الأديان العقائدي الدوغمائي) وهي

المرحلة الوسيطة لنشأة هذا العلم والتي لم يتمكن فيها العلماء من التخلص تماما من سيطرة انتماءاتهم الدينية عليهم، ورغم كل هذا فإننا نجد أن علم الملل والنحل الإسلامي لم يخرج عن الإطار العام للدين الإسلامي وأساساته الكبرى؛ التوحيد، وحدة الرسالات (الدين عند الله واحد)، الإسلام هو آخر الدعوات وأصحبها وأجدرها بالإتباع ثم عالمية دعوة محمد □، الاختلاف سنة إلهية ثم الدعوة بالتالي هي أحسن ولا إكراه في الدين.

ويمكننا أخيرا أن نؤكد أن جهود المسلمين في دراسة الملل والنحل لم تكن ذات طبيعة جدلية حجاجية وحسب، ولكنها اشتملت أيضا على التأريخ والوصف (تاريخ الأديان) والمقارنة الموضوعية بين الأديان المدروسة (مقارنة الأديان)، إضافة إلى النقد المنهجي العلمي وهذا على أساس ما ورد في القرآن الكريم والسنة القولية والفعلية، كما أضاف الأستاذ عبد المجيد الشرفي في كتابه (الفكر الإسلامي في الرد على النصارى)²³ نقاطا عن تميز الطبيعة العلمية لهذا العلم وهو يميز بين نوعين من الردود الإسلامية على النصارى إلى غاية القرن 10م حسب أغراضها إلى جدلية وتمجيدية وهي؛ الأولى أنها تناولت مواضيع حساسة وحاسمة في الجدل بين الطرفين الإسلامي والنصراني مثل (التثليث، التجسد، الصلب والفداء والكتب المقدسة) في مقابل الأغراض التمجيدية، ويقصد بها مواضيع تهم الطرفين وخاصة الجانب النصراني وأهمها (أمية النبي الكريم ومعجزاته، إعجاز القرآن الكريم وكونه وحيا من الله، التبشير بمحمد في الكتب المقدسة والنصرانية وفق الرواية القرآنية وغيرها)، ونحن نرى أن هذين الإتجاهين متكاملين وقد كانت لهما أسبابها؛ الأولى وهي طبيعة النقد الموجه للدعوة الإسلامية من النصارى حينها-أي في الأزمنة الأولى للقاء بين الطرفين و لايزال معظمها متداولاً حتى اليوم- والتي كانت تركز على نفي النبوة عن النبي محمد صلى الله عليه و سلم، وتعتبره نبيا منتحلا مدعيا للنبوة، وأن كتبهم وأنبياءهم لم ييشروا بني بعد المسيح إذ أنه لا يصح عقلا أن يأتي نبي بعد المسيح الذي هو (ابن الله المتجسد الذي أقام المصالحة النهائية بين الله وبين البشر فلا حاجة لنبي بعده)، ثم إنهم يؤكدون دائما على أن النبي محمد □ هو مؤلف القرآن الكريم إنطلاقا من إطلاعه على كتب يهودية ومسيحية مرفوضة، كما أنه □ خال من

المعجزات ولم يأت بواحدة منها تثبت نبوته وعلاقته بالسماء، وأمثال هذه الأقوال وغيرها وأصلها الأول موجودة في كتابات اللاهوتي الشرقي يوحنا الدمشقي (ق8م) في كتابه (الهرطقات)، وكذا في (نقاش بين مسيحي ومسلم) .

II- مصادره و مناهجه و مصطلحاته :

■ **مصادره :** وهي ذاتها دليل مشروعيتها؛ بالإستناد إلى القرآن الكريم والإستناد إلى دعوة النبي □ والسنة النبوية الفعلية والقولية نجد أن مصدر علم الملل والنحل إسلامي أصيل ولا أحد يستطيع إنكار هذا، فدارسو الأديان في الحضارة الإسلامية انطلقوا من القرآن الكريم أولاً كنص تأسيسي ومن السنة كنص شارح له، ثم ارتكزوا على هدف وواجب الدعوة إلى الحق المأمور بها في الرسالة الخاتمة، وهذا يجعلنا نقف عند ما يمكن أن نجده في القرآن الكريم من أصول منهجية ترشد الباحثين وتوجه العلماء، قال تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }²⁴، وقوله تعالى: { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ }²⁵، وهذا يعني أنه لا تقبل شرعية أي دين من حيث الحقيقة إلا للإسلام الذي هو دين الله الوحيد والذي بشر به أنبيأؤه الكرام منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى غاية الدعوة الخاتمة لسيدنا محمد □، ولكن هذا الموقف لم يمنع الإسلام من التسليم بالوجود الفعلي للأديان المختلفة بمعنى أنه يؤمن بواقعية التعدد الديني ولا يُشجع على محوه بالقوة والإكراه، يقول تعالى: { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }²⁶، لأنه يؤمن بالحرية الدينية وضوابطها، فرغم أن القرآن الكريم سقّه مقالات المخالفين إلا أنه دعا إلى مخاطبتهم بالحسنى وبالكلمة السواء، وهذا من مقتضيات الدعوة والتي هي أحسن المأمور بها حتى وإن آثر أولئك الإستمرار في غيهم وأهوائهم، فتعاليم الإسلام أمرت بتنبههم إلى أخطائهم وإقامة الحجة عليهم ثم تركت لهم الحرية ليتحملوا مسؤولية إختياراتهم بعد ذلك، قال تعالى: { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ }²⁷، "فاتجاه القرآن النقدي ملازم لفلسفته في التبليغ

ولإيمانه بضرورة الإقناع والإقناع والاستعداد للتعاشيش السلمي مع أهل الأديان الأخرى ويعزز هذا ما قدمه القرآن الكريم من مناهج للتعامل مع المخالفين " ²⁸، كما أن من الأدلة على أن القرآن الكريم كان مصدرا لهذا العلم هو كما يقول العلماء ²⁹:" لقد شغل ذكر الأديان في القرآن الكريم مساحة واسعة قد تكون الثلث وقد جمعت آية واحدة منه (6) من الأديان، قال تعالى ³⁰: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } ³¹، أما جذوره من السنة النبوية الشريفة فقد جرت مناقشات وحوارات بين الرسول □ وبين اليهود والنصارى حول مسائل كثيرة كانت أغلبها أسبابا لنزول الكثير من الآيات والصور القرآنية وهذا دليل فعلي وقولي كاف للقول بمشروعية هذا العلم؛ ومنها على سبيل المثال ما دار بينه وبين اليهود حول موضوع الروح والتوراة، وكذا المجادلة مع نصارى نجران، وكذا النصراني عُدي ابن حاتم، والأمثلة كثيرة، وعلى هذا فإننا نوافق الدكتور أحمد شوقي في قوله: "إننا نرى أن من مفاخر المسلمين أنهم ابتكروا علم الملل والنحل ووضعوا أسس الحوار الفاعل بين الأديان، ومن الطبيعي أن هذا العلم لم يظهر قبل الإسلام لأن الأديان قبله لا يعترف أي منها بالآخر، وكان كل دين يعد ما سواه من الهرطقة والظلال " ³² .

■ **مناهجه :** لعل من أهم المناهج المستقاة من القرآن الكريم في مخاطبة الآخر؛ المجادلة بالتي هي أحسن، منهج المقارنة، ومنهج الحوار، فالأصل الأول هو الدعوة بالتي هي أحسن، قال تعالى: {أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ³³، وهذه المراتب الثلاثة والمقصودون بها فصل فيها العلماء كابن تيمية وابن رشد في (فصل المقال)، وهذه أساليب لم يقل بها دين ولا ملة قبل الإسلام كما أشرنا من قبل، ومن مناهج القرآن الكريم أيضا في مجادلة الخصوم: ضرب الأمثال، الاستدلال بقصص السابقين، التحدي بالإتيان بالمثل، التسليم بالممتنع والوصول إلى إستحالة تحققه، مثل قوله تعالى: { مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ } ³⁴، مطالبة الخصم بتصحيح دعواه لأنها خالية من البرهان مثل

قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ³⁵، وقد فصلت العديد من الكتب في موضوع مناهج القرآن الكريم في مخاطبة الآخر المخالف ومن أهمها: كتاب الأستاذ الدكتور محمد حسين فضل الله الموسوم ب(الحوار في القرآن، أسسه أساليبه وقواعده) في جزئين، هذا عن القرآن الكريم، أما عن تطبيقات المسلمين لتلك المناهج على أرض الواقع أي في التاريخ الإسلامي فنجد أن مناهج (علم الملل والنحل) اتسمت بالتنوع إذ طبق المسلمون جُل المناهج السابقة مجتمعة أو متفردة في مؤلفاتهم بداية بالمنهج التاريخي الوصفي الذي يُعتبر من أهم نماذجه على الإطلاق؛ الشهرستاني في كتابه (الملل و النحل) والبيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)، و منهج التحليل والمقارنة الذي يُعد من أبرز مناهج العلماء المسلمين في دراسة الأديان، وأفضل نموذج في هذا الباب كتاب (الإعلام بمناب الإسلام) لأبي الحسن العامري، ثم المنهج التحليلي النقدي .

ولم تكن دراسات المسلمين تقتصر على العرض والوصف ولا المقارنة، بل تعدتها إلى التحليل و النقد العلمي الرصين المبني على الحجج والبراهين ثم الوصول إلى الغاية الشرعية منها هي إثبات صحة الإسلام وأحقيته بالإتباع، وأفضل مثال لهذا النوع هو كتاب ابن حزم الاندلسي (الفصل في الملل والأهواء والنحل)، وأخيرا استعمل المسلمون منهج الحوار والجدل والمناظرة الحية والمنقولة في الرسائل والكتب وهذه كان ينظمها الأمراء والخلفاء في قصورهم أين كان يجتمع أصحاب الملل والنحل ويحددون مواضيع المناظرات في أجواء من التسامح والروح العلمية، وهذا المنهج يمثل أغلب كتب المسلمين وأهمها وأشهرها في الآفاق المناظرات التي كانت تجري في بلاط الخليفة العباسي (المهدي) ومثالها (المناظرة بين الجاثليق طيموثاوس بطريرك الكنيسة الآشورية (728-823) في القرن 7 م)، ويبقى المنهج الإسلامي المتكامل هو المطلوب في الدراسات الإسلامية للأديان حيث تجتمع المناهج المذكورة جميعا ويكون غرضها وهدفها الأول والأخير هو (الدعوة إلى دين الله و إظهار الحق) لتحقيق الغرض الشرعي لعلم الملل والنحل .

نخلص إلى أن التسمية الحديثة (مقارنة الأديان) المنتشرة الآن في الجامعات الإسلامية والتي تختص بدراسة هذا العلم قاصرة نوعاً ما؛ إذ أن المقارنة منهج واحد من ضمن عدة مناهج درست بها الأديان في الحضارة الإسلامية، كما أن التوجه الشرعي الإسلامي فيها يجب أن يُحدد مسبقاً وهو (إظهار الحق وفضح الباطل)، وإن كان هذا الأسلوب في المناهج الحديثة يسمى (الدفاع والتبرير) ويوصم بالدوغمائية، إلا أنه يجب التفريق تماماً بين العلوم الحديثة المتخصصة في دراسة الأديان والتي تدعي العلمية والموضوعية والحيادية، وبين الدراسات والعلوم الدينية التي تهدف إلى ترسيخ العقيدة والدفاع عنها، كما نجد أن آخرين³⁶ يقولون أن (علم الملل والنحل الإسلامي) هو ذاته (علم مقارنة الأديان الحديث) وهذا غير صحيح من عدة أوجه سنذكرها مجتمعة في نقاط: أولها أن القرآن الكريم لم يذكر مصطلح (مقارنة الأديان) أو (علم الملل والنحل) فهذه إنتاجات بشرية جاءت كضرورة حضارية تطلبتها المرحلة التي عاشتها الأمة الإسلامية بداية من القرن 2هـ/8م فكانت سبباً في نشوء هذا العلم وأهمها ضرورة التعايش والتسامح الديني مع الطوائف الدينية التي كانت تحتضنها الحضارة العربية الإسلامية المترامية الأطراف، وثانيها أن استخدام القرآن الكريم لأسلوب ومنهج المقارنة بين ما جاء به من الحق وما كان عليه الناس زمن نزوله من الزيف عن الحق لا يعني أبداً أن العلم المنبثق لاحقاً من هذه المادة يسمى (مقارنة الأديان) فالمقارنة ليست الأسلوب والمنهج الوحيد الذي تعامل به القرآن الكريم مع المخالفين، وآخرها الوجه الثالث لا أحد من المتقدمين أطلق على الدراسات الدينية التي قام بها في مجال الفرق و النحل تسمية (علم مقارنة الأديان) فقد استخدموا مصطلحات (المقالات، الديانات، العبادات، الأديان ثم الملل والنحل) التي استقرت عليها تسمية هذا الباب من البحوث الدينية، كما أن المقارنة كمنهج للمعرفة تستلزم منطقاً المساواة في المكانة بين الأطراف التي نريد المقارنة بينها وتفترض وجود أوجه اختلاف وتشابه بينها وهذا وإن أقره القرآن الكريم منهجياً فهو مقابلة بين ما جاءت به الدعوة الجديد الصحيحة وبين ما فسُد من الأديان السابقة؛ فنجد قارن بين أقوال الطرفين في (الألوهة، النبوة والكتب..) فهذا أقرب إلى المقابلة منه إلى المقارنة كما

يتضمن تحديد نقاط الفساد فيها، فعلم مقارنة الأديان هو فرع من (علم الأديان) وغرض المقارنة فيه ليس الوصول إلى الحق وإنما الوصول للقول بأن التشابهات بين الأديان المتعددة في الجماعات الإنسانية دليل على بشريتها، يقول الأستاذ محمد ميرا: "والمقارنة كمنهج علمي في مجال الأديان وعلى المستوى الأكاديمي حديثة الظهور، ظهرت في القرن الماضي لدى علماء الغرب المهتمين بدراسة الأديان، لكن هذا لا ينفي كونها منهجا قرأنا اتبعه علماء المسلمين وإن كان في نطاق محدود"³⁷، بينما منهج المقارنة الموجود في القرآن الكريم أقرب ما يكون إلى المجادلة والحوار بعرض الرأي والرأي المقابل قصد تغليب رأي على رأي آخر في آخر المشوار، كما أن استعمال القرآن الكريم لهذا المنهج العلمي كان للكشف عن التشابهات التي تدل على وحدة المصدر الإلهي، والإختلافات لمعرفة مواطن التحريف والتزوير في الدعوات الإلهية السابقة عن الإسلام باعتبار أن دين الله واحد، كما أن العلماء المسلمين الأوائل الذين اتخذوا من الأديان الأخرى غير الإسلامية مادة لدراساتهم وأبحاثهم كانوا يدرسونها بموضوعية ومصداقية لأغراض دعوية ليثبتوا علاقة هذه الأديان العضوية بالرسالة الخاتمة أي يدرسونها لخدمة الإسلام، لأن الله عز وجل أقر بأن الدين عند الله واحد ولذلك كان المنهج الوصفي المقارن هو أفضل المناهج لهذه الدراسات وهم لم يصفوا دراساتهم بالمقارنة لأن لا مجال للمقارنة بين الصحيح والسقيم، ولكن التسمية القويمة والمقبولة شكلا ومضمونا هي التسمية التي أطلقها أبو الحسن النوبختي على هذا العلم في كتابه (الملل والنحل) والتي تبعه فيها كل من جاء بعده وهي تسمية تحمل في معناها كل ما يخص هذا العلم من موضوع وغرض شرعي، رغم أننا نجد أن الماجدي في كتابه (علم الأديان) لا يعتبر علم الملل والنحل (علماء) بمعنى كلمة علم وخاصة في ميزة الموضوعية لأنه يرى أنه شبيه بعلم اللاهوت اليهودي والمسيحي وهي علوم دوغمائية ذات طابع تبريري متعلقة بدين معين ومؤمنة به، إلا أنه يُقر بتفوق علم الملل الإسلامي على نظرائه خلال حقبة القرون الوسطى، حتى أنه سماه ب (علم الأديان الإسلامي الوسيط)³⁸.

مصطلحاته وعلاقتها باللغة العربية:

أما اللغة العربية فهي لغة القرآن المنزل والحديث النبوي الموحى به، المخاطب بهما أهل الإيمان، ولا يصح تأدية شعائر الدين الإسلامي من صلاة وذكر ودعاء وغير ذلك إلا بها، وهذا لا يعني أنها لم توجد قبل الإسلام ولكن المقصود هو أن ظهور الإسلام ساهم في إنتشارها وسط الخلائق ذات اللسان الأعجمي، هؤلاء الذين دخلوا في الدين الإسلامي أفواجا وأقبلوا على اللغة العربية يتعلمونها بشغف، فكثر عدد أهلها وسادت البلاد البعيدة بعد أن كانت منزوية بأطراف جزيرة العرب، كما أن ظهور الإسلام أدخل اللغة العربية في مرحلة جديدة من تاريخها حسب الدكتور جورج زيدان إذ يشير في كتابه (تاريخ اللغة العربية): "لا مشاحة في أن الإسلام أثر في اللغة تأثيرا كبيرا هو تابع لتأثيره في العادات والآداب والإعتقادات ويدخل في ذلك ما طرأ على اللغة من الإصطلاحات الدينية والفقهية واللغوية والأدبية وما دخلها من الألفاظ الإدارية على إثر إنشاء الحكومة ودوائرها وفروعها ثم الألفاظ العلمية والفلسفية بترجمة كتب اليونان والفرس والهنود إلى العربية.. فتأثير العلوم الإسلامية على اللغة يكاد يكون محصورا في تنوع الألفاظ العربية وتغيير معانيها للتعبير عما أحدثه الإسلام من معاني جديدة بلا إدخال ألفاظ أعجمية إلا نادرا"³⁹، ثم إنه قسّم العصر الإسلامي والتغييرات التي لحقت اللغة العربية فيه إلى ثلاثة أقسام: التغييرات بسبب العلوم الإسلامية (الألفاظ الإسلامية)، الألفاظ الإدارية والألفاظ العلمية وأخيرا الألفاظ النصرانية واليهودية، فقد أخذت الألفاظ العربية معاني دينية جديدة متعلقة بالمنظومة الفكرية الإسلامية، لذا نجد أنه أصبح للفظه معنيان؛ معنى في اللغة ومعنى في الشريعة، وهذا من خلال اتصالها بالعلوم الإسلامية التي إنبثقت من القرآن والحديث النبوي وكانت العربية أداتها للتعلم والتعليم، كما أن هذا الإنتشار السريع للغة العربية استلزم من أهلها أيضا بذل المزيد من العناية والإهتمام بها من خلال تدوينها وضبط قواعدها وتطوير رسمها وخطوطها مستنديين إلى القرآن الكريم كتاب العربية الأول مخافة أن يتسلل إليها اللحن والخطأ من اللغات الأخرى، خاصة أنها اللغة التي يُقرأ بها القرآن الكريم ويُتعبد بها، فنشأت إثر ذلك علوم النحو والصرف والبلاغة

وغيرها وأُطلق عليها (علوم اللغة العربية) ⁴⁰، كما دُونت بها باقي العلوم الإسلامية؛ سواء المتعلقة مباشرة بالقرآن الكريم والحديث النبوي أو العلوم المستقاة والمرتكزة عليهما من ناحية التوجه العام المميز لها كعلوم إسلامية عربية ⁴¹؛ ونقصد بالعلوم الإسلامية العربية المعنى الحضاري للمصطلح لا المعنى العرقي أو الديني، فتعلقها بالحضارة الإسلامية العربية يمنحها ميزة لا توجد في مقابلاتها من الحضارات الأخرى اليهودية أو المسيحية أو اليونانية، فلكل حضارة صبغة تتميز بها عن غيرها وتُلون بها إنتاجها الفكري والإنساني، وإن استندت على أساس العلوم السابقة من الحضارات السابقة إلا أنه يبقى لكل حضارة صبغة ولون لا يوجد في غيرها، وهذا هو (التمثل) الذي تكلم عنه فلاسفة التاريخ، وميزة الحضارة الإسلامية العربية أن لغتها الرسمية هي (العربية) وعقيدتها الرسمية هي (الإسلام)، رغم أنها ضمت تحت جناحها أصحاب عقائد و ملل غير المسلمين وضمت أجناسا وألسنة مختلفة غير اللسان العربي إلا أن هؤلاء جميعا كانوا ينتمون إلى الحضارة العربية الإسلامية حال تصنيفهم، وهناك ثلاثة أنواع من المصطلحات الخاصة بهذا العلم وهي: المصطلحات القرآنية، المعربة والمنقولة كما هي فالإسلام لم يضيف إلى الألفاظ العربية إلا المعاني الجديدة المتعلقة بالشرعية والمستقاة من القرآن الكريم؛ فالقرآن هو كتاب العربية الأول وهو يضم بين دفتيه كل لغات العرب ولهجاتهم لذا فالإضافة التي مست اللغة العربية اقتضت - كما أشار الدكتور جورج زيدان وطه الراوي وغيرهما - على المعاني الجديدة (الشرعية، الفقهية، الكلامية ..) فنجد أنه أبقى مثلا على لفظة (صلاة) التي تعني في العادة دعاء وأضاف إليها معان جديدة ترتبط بالشرع لتعني (عبادة يؤديها المسلم بأفعال وأقوال وهيئة مخصوصة تتضمن الدعاء وتزيد عليه قراءات من القرآن الكريم، وكذلك (الزكاة) إذ تجاوز معناها مجرد النماء والتزكية والتطهير إلى التعلق بأموال المسلم كحق من حقوق الله فيها يؤديها بصفة وقدر وزمن محدد لفئة محددة من المسلمين والأمثلة كثيرة على هذه التنوعات في المعاني الشرعية: "وأشهر ما حدث من التنوعات في الألفاظ العربية في العصر الإسلامي الإصطلاحات الدينية والشرعية والفقهية واللغوية وكانت ألفاظها موجودة قبل الإسلام ولكنها كانت تدل على معان أخرى فتحولت

للدلالة على ما يقارنها من المعاني الجديدة مثل (المؤمن) الذي كان معروفا في الجاهلية ويدل على الأمان أو الإيمان وهو التصديق، فأصبح بعد الإسلام يدل على المؤمن وهو غير الكافر وله في الشريعة شروط معينة...ومما حدث في الإصطلاحات الشرعية الصلاة والزكاة..والإصطلاحات الفقهية كالظهار والعدة والنفقة والتعزير والوديعة ..⁴²، وبعض هذا القول طه الراوي⁴³:" وليس معنى هذا أن تلك المصطلحات كلها ارتجلت ارتجالا وابتدعت ابتداعا وإنما جلها معان جديدة نقلت إليها ألفاظ من اللغة كانت مستعملة في معان أخرى تتناسب مع المعاني الشرعية"، ولما اتسع نطاق المعارف وبسقت دوحتها وامتاز كل علم منها بمسائله وقواعده إحتاجوا في كل فرع منها إلى وضع مصطلحات كثيرة للمعاني الكثيرة التي زخرت بها العلوم وقد تمايزت مصطلحات كل علم عن غيرها فصار يعرف بها، أما المصطلحات المتعلقة بعلم الملل والنحل فنجد أن معظمها مأخوذة من القرآن الكريم (أهل الكتاب، اليهود، النصارى ولم يذكر المسيحيين ، المسيح ابن مريم كلمة الله وروح منه، الروح الأمين جبريل، المسيح عيسى ابن مريم، بني إسرائيل، وأسماء الأنبياء، و أصناف المتدينين:الصائبين ،المشركين، والكفار، حتى تسميات الآلهة العربية (اللات، العزى، منات...))، وأضيف إليها مصطلحات من البيئة التي عاش وكتب فيها المسلمون فأخذوا عن النصارى السُريان الكثير خاصة أن هؤلاء كانوا من أول الفئات الدينية التي إلتقى بها المسلمون ودخلوا معها في مناظرات وحوارات رائعة، كما أنهم كانوا أعمدة الحضارة العربية بحق إذ كانوا من الفئات المتعلمة التي تولت الترجمة من اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية وكذا التأليف والشرح وكذا العمل في الدواوين، وهذه الأدوار جعلتهم يضيفون الكثير إلى الحضارة الإسلامية، و قد ذكر جورجى زيدان أمثلة عن الألفاظ النصرانية واليهودية والسريانية التي دخلت على اللغة العربية في كتابه سالف الذكر يقول:" نريد بالألفاظ النصرانية واليهودية ما دخل اللغة العربية من الإصطلاحات الدينية لأهل الكتاب وخصوصا بعد أن نقلت التوراة والإنجيل إلى اللسان العربي"⁴⁴، وهنا يقصد أصحاب الديانات الأخرى والذين سكنوا البلاد العربية وربما كانوا في أصولهم عربا وكانوا قد عزّبوا الكثير من المصطلحات

الدينية الخاصة بهم ثم إنهم ترجموا كتبهم المقدسة إلى العربية، وهذا أضاف إلى اللغة العربية رصيدا جديدا من الألفاظ والمصطلحات ذات الدلالة الدينية، ولما جاء الإسلام في القرن 7م ونزل كتابه المقدس القرآن الكريم جاءت فيه مصطلحات دينية جديدة خاصة بالدعوة الجديدة مثل أسماء الأنبياء في القرآن المعربة عن أصلها العبري مثل : يوسف=يوسفوس، إبراهيم=أبرام، موسى=موسيس، يحيى = يوحنا، زكرياء = زكاي و زكريا، ماري = مريم، يعقوب = جاكوب و ياكوب .

و لهذا نستطيع أن نقول أن علم الملل و النحل الإسلامي العربي متميز عن العلوم المتخصصة في الأديان والمذاهب عنه في الأديان الأخرى اليهودية والمسيحية؛ من ناحية مصادره ومناهجه وأغراضه، وكذا مصطلحاته المتخصصة ولغته الخاصة التي تعبر عن أهدافه وتصنيفه بين العلوم، وكذا عن علاقته بالعلوم الدينية الحديثة(مقارنة الأديان، فلسفة الأديان، علم الأديان) وكيفية العودة إلى الأصل الإسلامي من ناحية التسمية ومن حيث المناهج وكذا إعادة توضيح وتحديد الأغراض الشرعية له خاصة في الكليات المتخصصة في تدريسه في الجامعات الإسلامية .

II- النتائج و التوصيات : نخلص في الأخير إلى النتائج الآتية :

- إن الفكر الإسلامي اليوم مدعو إلى أن يبين الصورة الحقيقية للعلوم الإسلامية ويرفع اللبس الذي يكتنفها في الذات وعند الآخر من جراء الحملات التي تثير شكوكا وشبهات حول أصالتها في البيئة الإسلامية، فالتطلع إلى معرفة على هذا المستوى المسؤول يتطلب من الفكر الإسلامي المعاصر الانتقال أو العودة من مرحلة (الوعي بالذات) إلى مرحلة(اكتشاف الذات وتقييمها) من خلال البحث في تاريخ العلوم الإسلامية وبعثها على أصولها ومن أصولها من جديد .
- البحث في الأديان من الناحية الإسلامية أساسه القرآن الكريم الذي نبه إلى وجود طوائف وديانات أخرى؛ فدعا إلى التعرف عليها ودعوتها إلى الحق أو معاشرتها بالمعروف .

- القرآن الكريم ذو الفضل الأول في تحفيز العقول الإسلامية للحوار مع الآخر والتعايش السلمي معه وإيقاظ روح البحث فيه؛ فقد أرسى القواعد الأساسية في نقد العقائد والمذاهب بطريقة لم تكن مألوفة في ذلك العصر.
- أفضى استخدام المنهج النقدي التاريخي الذي أساسه (التحليل والنقد) أسهم في تأسيس قواعد نقد الروايات والمتون نقدا داخليا وخارجيا، لكن بمجرد حلول عصور الإنحطاط والجمود اتجه الفقهاء إلى التعصب والتطرف والإنكفاء على مذاهبهم فانحصر ثم انعدم إهتمامهم بالآخر المختلف دينيا وانشغلوا بالداخل وانغمسوا فيه.
- في الوقت الذي عرف علم الأديان انكفاء وضمورا في العالم الإسلامي، انبعث هذا العلم في الغرب فيما سُمي لاحقا(الإشتراق الديني) في الأندلس وصقلية وغيرها،و كانت معاقله في أوروبا الغربية هي الأديرة والكنائس، ثم أصبحت الجامعات والمدارس الحديثة مؤسسات لدراسة الأديان والإهتمام بالآخر الديني ، ورغم ذلك نجد أن التأريخ لهذا العلم كثيرا ما يتجاوز الفترة الإسلامية وكأنها ليست ذات أهمية في تاريخ هذا العلم .
- لعلم الملل والنحل الإسلامي علاقة عضوية تربطه باللغة العربية من ناحية إستقاء مصطلحاته ودلالاتها ومناهجه وغاياته الشرعية من القرآن الكريم والتي لا مثيل لها في العصور الوسطى .
- لا يجب الخلط بين علم الملل والنحل الإسلامي وبين علم الأديان الغربي الحديث وفروعه العلمية، فهي ليست علوما خادمة للدين بل هي فروع تابعة لعلم الأديان الحديث وكلها تحمل أصوله وتعمل على تحقيق أهدافه .
- تفضيل التسمية الإسلامية الأصيلة(علم الملل والنحل)رغم طبيعتها الدوغمائية التبريرية إلا أنها تتميز بالموضوعية الفريدة والتي تشفع له وترتقي به إلى صفة العلمية المطلوبة اليوم في العلوم الدينية والإنسانية .

● الدراسات العلمية المقارنة للأديان تدعي (الحيادية و الموضوعية) وهي لا تميل إلى الطعن في الأديان المخالفة، بينما المقارنة الدينية للأديان فمن طبيعتها تفضيل دين واحد والإنحياز إليه، وترى أنه يمتلك الحقيقة الإلهية وحده ولكن ليس من الضروري فيها استعمال الطعن والانتقاص والإقصاء رغم أن هدفها هو التركيز على بيان الحق والدعوة إليه .

● بعد الإستقصاء الذي قمنا به في البحث ندعو إلى مناقشة مسألة تبني التسمية الإسلامية لدراسات الأديان أي (علم الملل والنحل) في الجامعات والمعاهد الإسلامية المتخصصة في هذا الشأن لأنها تدل أكثر على أصوله الإسلامية وأغراضه وأهدافه الشرعية المرجوة والمطلوبة منه رأساً .

¹ سورة المائدة، الآية (82)

² سورة آل عمران، الآية (85)

³ سورة البقرة، الآية (285)

⁴ الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ، مادة ملل، ص 610 . (موقع: archive.org)

⁵ سورة الأنعام ، الآية (161)

⁶ التهانوي: كشف مصطلحات الفنون و العلوم، مادة ملة ، ج 2 ، ص 1639

⁷ الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ، ص 471

⁸ سورة يوسف ، الآية (37)

⁹ ابن منظور: لسان العرب ، ج 11 ، مادة ملة ، ص 631

¹⁰ ابن منظور: المرجع نفسه ، ج 11 ، مادة نخلة ، ص 651

¹¹ أحمد جود :علم الملل و مناهج العلماء فيه ، ص 12

¹² علي سامي النشار : نشأة الدين ؛ النظريات التطورية و المؤله

¹³ أحمد جود : مرجع سابق ، ص 12

¹⁴ آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن 4هـ او عصر النهضة في الاسلام ، ص 385

¹⁵ عرفان عبد الحميد : دراسات في الفرق و العقائد الاسلامية ، د ط (العراق -مطبعة الإرشاد -1967)

¹⁶ سورة هود : الآية (118)

¹⁷ ميثم الجنابي : علم الملل و النحل ، ص 5

- ¹⁸ الجنابي : المرجع نفسه ، ص 6
- ¹⁹ آدم ميتز : مرجع سابق ، ص 385
- ²⁰ محمد عبد الله دراز : الدين ، د ط (الكويت - دار القلم - د ت) ، ص 21
- ²¹ أحمد جود : مرجع سابق ، ص 23
- ²² خزعزل الماجدي : علم الاديان ، ط1 (المغرب - مؤسسة مؤمنون بلا حدود - 2016)
- ²³ عبد المجيد الشرفي : الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن 4/10 م ، د ط (تونس - الدار التونسية للنشر - 1986)
- ²⁴ سورة آل عمران : الآية (19)
- ²⁵ سورة الشورى ، الآية (13)
- ²⁶ سورة البقرة ، الآية (256)
- ²⁷ سورة آل عمران ، الآية (20)
- ²⁸ دين محمد دين ميرا : مقالات في المنهج ، ص 41
- ²⁹ أحمد جود : مرجع سابق ، ص 40
- ³⁰ سورة الحج ، الآية (17)
- ³¹ سورة الحج ، الآية (17)
- ³² أحمد شوقي : مدخل لدراسة علم الملل و النحل ، حولية كلية الدراسات الإسلامية و العربية للبنات ، ص 861
- ³³ سورة النحل ، الآية (125)
- ³⁴ سورة المؤمنون ، الآية (91)
- ³⁵ سورة البقرة ، الآية (80)
- ³⁶ أحمد شليبي : موسوعة الحضارة الإسلامية ، ج1 ، المناهج الإسلامية ، ص 117 .
- ³⁷ أحمد ميرا : مرجع سابق ، ص 44
- ³⁸ الماجدي : مرجع سابق ، ص 73
- ³⁹ جورج زيدان : تاريخ اللغة العربية ، د ط (مصر ، مطبعة الهلال ، 1904) ، ص 20
- ⁴⁰ طه الراوي : تاريخ علوم اللغة العربية ، د ط (المملكة المتحدة ، يورك هاوس ، 2021)
- ⁴¹ جبار : العلوم العربية في عصرها الذهبي ، ترجمة محمد نعيم ، ط1 (المملكة السعودية - مؤسسة صفحة سبعة ، د ت) ، ص 11-12
- ⁴² جورج زيدان : مرجع سابق ، ص 20
- ⁴³ طه الراوي : مرجع سابق ، ص 27
- ⁴⁴ جورج زيدان : مرجع سابق ، ص 41

- المراجع :

- (1) القرآن الكريم
- (2) التهانوي محمد علي ، كشاف اصطلاحات الفنون و العلوم (د ط - مكتبة لبنان - موقع Waqfeya.net)
- (3) الأصفهاني الراغب ، المفردات في غريب القرآن ، (د ط - مكتبة نزار مصطفى الباز - موقع Waqfeya.net)
- (4) ابن منظور ، لسان العرب ، ج 11 ، مادة ملة ، (د ط ، الناشر - موقع waqfeya .net)
- (5) ابن منظور ، لسان العرب ، ج 11 ، مادة نحلة .
- (6) شليبي أحمد (1989) ، موسوعة الحضارة الإسلامية ، ج 1 (المناهج الإسلامية) ، (ط 6 ، مصر ، مكتبة النهضة المصرية) .
- (7) جود أحمد بن عبد الله (2005) ، علم الملل و مناهج العلماء فيه ، (ط 1 ، الرياض ، دار الفضيلة للنشر و التوزيع)
- (8) الجناحي ميثم (1994) ، علم الملل و النحل تقاليد المقالات و الأحكام في ثقافة الإسلام ، (ط 1 ، مؤسسة عييال للدراسات و النشر - العراق)
- (9) النشار علي سامي (1948) ، نشأة الدين ؛ النظريات التطورية و المؤلهة، (د ط ، مصر ، مكتبة الخانجي)
- (10) ميتز آدم (د ت): الحضارة الإسلامية في القرن 4هـ أو عصر النهضة في الاسلام ، ج 1، (ط 5 ، لبنان ، دار الكتاب العربي)
- (11) عرفان عبد الحميد (1967) ، دراسات في الفرق و العقائد الإسلامية ، (د ط ، العراق ، مطبعة الإرشاد)
- (12) دراز محمد عبد الله (د ت) ، الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، (د ط ، الكويت - دار القلم -)
- (13) الماجدي خزعل (2016) ، علم الاديان ، (ط 1 - المغرب - مؤسسة مؤمنون بلا حدود)
- (14) عبد المجيد الشرفي (1986) ، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن 4/10م ، (د ط ، تونس - الدار التونسية للنشر)
- (15) ميرا دين محمد دين (2009) ، في علم الدين المقارن ؛ مقالات في المنهج ، (ط 1 ، مصر ، دار البصائر)
- (16) زيدان جورج (1904) ، تاريخ اللغة العربية ، (د ط ، مصر - مطبعة الهلال)
- (17) الراوي طه (2021) ، تاريخ علوم اللغة العربية ، (د ط ، المملكة المتحدة ، يورك هاوس)
- (18) جبار أحمد (د ت) ، العلوم العربية في عصرها الذهبي ، ترجمة محمد نعيم ، (ط 1 ، المملكة السعودية - مؤسسة صفحة سبعة)
- (19) شوقي أحمد (2016) : مدخل لدراسة الملل و النحل ، حولية كلية الدراسات الإسلامية و العربية للبنات ، الإسكندرية ، مج 7 ، عد 32 ، ص 805-926